

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب

قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرٍ إِنَّمَا هِيَ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْنًا أَوْ تَحَفُّوهْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نَسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا» (الأحزاب: ٥٣-٥٥).

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَارْشَدَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْ السُّكُوتُ النَّاشِئُ عَنْ سَبَبٍ هُوَ سَكُوتٌ لَا دَلَالَةَ لَهُ عَلَى الرِّضَا، وَإِنَّهُ إِنَّمَا سَكَتَ حَيَاءً مِنْ مِبَاشَرَتِهِمْ بِالْإِخْرَاجِ، فَهُوَ اسْتِحْيَاءٌ خَاصٌّ مِنْ عَمَلٍ خَاصٍّ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُؤْذِيًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ فِيهِ مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّفَضُّعِ لَشُؤْنِ النُّبُوَّةِ، مِنْ تَلْقَى الْوَجْهِ أَوْ الْعِبَادَةِ، أَوْ تَدْيِيرِ أَمْرِ الْأُمَّةِ، أَوْ التَّأَخُّرِ عَنِ الْجُلُوسِ فِي مَجْلِسِهِ لِنَفْعِ

عبد العظيم بدوي

وسلم مُقَرَّرٌ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّهُ عَمَلٌ مَذْمُومٌ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعَزَّ خَلْقٍ فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي التَّحَرُّزَ مِمَّا يُؤْذِيهِ أَذَى أَدَى. وَمَنَاطُ دَفْعِ الْإِغْتِرَارِ قَوْلُهُ: «فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ»، فَإِنَّ السُّكُوتَ قَدْ يَظُنُّهُ النَّاسُ رِضًا وَادْنًا، وَرَبِّمَا تَطَرَّقَ إِلَى أَذْهَانِ بَعْضِهِمْ أَنْ جُلُوسَهُمْ لَوْ كَانَ مَحْظُورًا لَمَا سَكَتَ عَلَيْهِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

من مكارم أخلاق

النبي صلى الله عليه وسلم:

وَجُمْلَةٌ: «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ» اسْتِثْنَاءٌ ابْتِدَائِيٌّ لِلتَّحْذِيرِ وَرَفَعَ الْإِغْتِرَارَ بِسُكُوتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْسِبُوهُ رِضَى بِمَا فَعَلُوا. فَهَنَاطُ التَّحْذِيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ»، فَإِنَّ أَذَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ



المسلمين، ولشؤون ذاته وبيته وأهله.

والتفريع في قوله تعالى: «فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ» تفريع على مقدور دلت عليه القصة، والتقدير: فيهم بإخراجكم فيستحيي منكم، إذ ليس الاستحياء مضرعا على الأيذاء، ولا هو من لوازمه.

إن الله لا يستحيي من الحق؛ وجملة «والله لا يستحيي من الحق» معطوفة على جملة «فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ»، والمعنى إن ذلك سوء أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا كان يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار ترجيحاً منه للعضو عن حقه على المؤاخذه به، فإن الله لا يستحيي من الحق، لأن أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه.

«والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (الأحزاب: ٤).

وقد أفاد قوله تعالى: «والله لا يستحيي من الحق» أن من واجبات دين الله على الأمة أن لا يستحيي أحد من الحق الإسلامي في إقامته، وفي معرفته إذا حل به ما يقتضي معرفته، وفي إبلاغه وهو تعليمه، وفي الأخذ به، إلا فيما يرجع إلى الحقوق الخاصة التي يرغب أصحابها في إسقاطها أو التسامح فيها، مما لا يغمص حقاً لغيره، لأن الناس مأمورون بالتخلق بصفات الله تعالى اللائقة بأمثالهم بقدر الإمكان. وهذا المعنى هو الذي فهمته أم سليم، وأقرها النبي صلى الله

عليه وسلم على فهمها: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم إذا رأت الماء). (صحيح البخاري: ١٣٠)؛ فهي لم تستح من السؤال عن الحق المتعلق بها، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستح من إخبارها بذلك. (التحرير والتنوير (٢٢/٨٥-٨٩) باختصار وتصرف).

مغاطر النظر:

هذا ما أدب الله به المؤمنين في دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم من الأدب مع نساء النبي صلى الله عليه وسلم عند الحاجة لسؤالهن عن أي شيء، فقال: «وإذا سألتنهم متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» فحرم عليهم الاطلاع عليهن، والنظر إليهن، وعمل ذلك بقوله: «ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن» أي أكثر تطهراً من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال، فإن الرؤية سبب التعلق والفتنة، وقد قيل: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس.

لا تقدموا بين يدي الله ورسوله:

وإذا قال الله في الحجاب، وعزل النساء عن الرجال، ومنع الرجال من الدخول

على النساء: «ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن»، فلا يقل أحد غير ما قال الله، ولا يقل أحد إن الاختلاط، وإزالة الحجب، والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين، لا يقل أحد ذلك أظهر للقلوب، وأعف للضمان، وأعون على تصريف الغريزة المكتوبة، إلى آخر ما يقول نفر من خلق الله الضعاف المهازيل، الجهال المحجوبين، لا يقل أحد شيئاً من هذا، والله يقول: «وإذا سألتنهم متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن»، يقول هذا عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرات، أمهات المؤمنين، وهن موضع الاحترام والتكريم، وهن محرمات على المسلمين، وقد بلغن منزلة في الدين والتقوى ليس فوقها منزلة، وفي بيوتهن تنلى آيات الله والحكمة، ويشهد تنزل الوحي، والتطبيق العملي للإسلام في مضمره الكتاب والسنة، والصحابة جيل مثالي، سما إلى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه جيل، وقد شهد الله ورسوله لهم بالفضل:

قال تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة: ١٠٠).

وقال صلى الله عليه وسلم: (خير الناس قرني، ثم الذين

يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) (صحيح البخاري: ٢٦٥١). ومع ذلك فقد حدد الله تعالى علاقة هؤلاء الزوجات بأولئك الرجال الأفاضل على ما نطقته الآية الكريمة: «وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب». (تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط المستهتر: ص ٢٨). ولا يقولن أحد: إن هذا الحجاب خاص بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فإن تغليل الله تعالى للحجاب بكونه أظهر لقلوب الرجال والنساء من الزينة قرينة واضحة على إرادة تغميم الحكم. إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى أظهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الزينة منهن، ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلا شك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الزينة.

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم

بما أمر الله به من الحجاب:

ثم إنه مع دلالة القرآن الكريم على احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب قد دلت على ذلك أيضاً الأحاديث النبوية: عن عتبة بن عامر الجهني- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله

أفرايت الحموم؟ قال: الحموم الموت) (صحيح البخاري: ٥٢٣٢).

فهذا الحديث الصحيح صرح فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالتحذير الشديد من الدخول على النساء، فهو دليل واضح على منع الدخول عليهن وسؤالهن متاعاً إلا من وراء حجاب، لأن من سألها متاعاً لا من وراء حجاب فقد دخل عليها، والنبي صلى الله عليه وسلم حذره من الدخول عليها، ولما سألته الأنصاري عن الحموم الذي هو قريب الزوج الذي ليس محرماً لزوجه، كأخيه وابن أخيه، وعمه وابن عمه، ونحو ذلك، قال له صلى الله عليه وسلم: (الحموم الموت)، فسمى صلى الله عليه وسلم دخول قريب الزوج على امرأته وهو غير محرّم لها باسم الموت، ولا شك أن تلك العبارة هي أبلغ عبارات التحذير: لأن الموت هو أفظع حادث يأتي على الإنسان في الدنيا.

فتحذيره صلى الله عليه وسلم هذا التحذير البالغ من دخول الرجال على النساء، وتغبيره عن دخول القريب على زوجة قريبه باسم الموت دليل صحيح على أن قوله تعالى: «وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب» عام في جميع النساء، إذ لو كان حكمه خاصاً بأزواجه صلى الله عليه وسلم لما حذر الرجال هذا التحذير البالغ العام من الدخول على النساء،

وظاهر الحديث التحذير من الدخول عليهن ولو لم تحصل الخلوة بينهما، وهو كذلك، فالدخول عليهن، والخلوة بهن، كلاهما محرّم تحريماً شديداً بانصراده (أضواء البيان (٥٨٤/٦-٥٩٣) باختصار).

إن الله يغار على حريمكم، ويغار على أعراضكم، فليت شعري، متى تنتهي عن هذا الاختلاط المستهتر الذي عم المجتمع، في البيوت، والمدارس، والأسواق، والمحلات، وليت شعري متى ينتهي الرجال عن طلب العاملات بشرط أن تكون العاملة أنسة، ومتى تنتبه للخطر الداهم الذي دنس الشرف، وانتكح الأعراض، وأدى إلى اختلاط الأنساب، أو القتل بالأجهاض، متى ترجع النساء إلى بيوتهن كما أمرن، «وقرن في بيوتكن»، ومتى تنتهي السهرات العائلية، التي يختلط فيها الرجال بالنساء، والشباب بالبنات، ومتى ينعزل الأخوة في العائلات المختلطة، ومتى تمتنع النساء عن استقبال الرجال في البيوت في غيبة أزواجهن وحضورهم، ومتى يختفي من المحلات تواجد العاملات، الرجل والمرأة، أو صاحب العمل والبنات العاملة؟! «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون» (الأنفال: ٢٤). وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

